سيكولوجية الحظ والنجاح

للدكتور فضـــل أبو بكر

أعبت بالحظ لو ناديت مستمعاً
والحظ عمى يا لجهال فى شغل
(الطغرائى)

الحظ أو البخت أو الجد أو غير ذلك من المترادفات العديدة التى تعنى حسن الطالع والصادفة الوفقة ، إنما هى ألفاظ كثيرة الانتشار تجرى على كل لسان بل وفى كل زمان ومكان .

والاعتقاد فى الحظ من سعيده أو سيئه ليس مقصوراً علينا نحن معشر الشرقيين دون غيرنا من أمم الأرض ؛ فالغربيون بالرغم عن دعوتهم بأنهم أكثر منا واقعية — وإن كانوا أجنح إلى المادية — يؤمنون أيضاً بالحظ وربما سبقونا فى هذا المضمار .

كلمة الحظ يرددها خاصة الناس وعامتهم . يرددها الغنى فى لهفة وجشع يود المزيد ويخشى الفقر والاملاق ، وهو يشكر للحظ ابتسامته فى كثير من الأحيان ، لأن الثراء يجذب الثراء من غير كبير عناء ، وإنما العناء والمشقة هما فى بداية الأمر عند وضع حجر الأساس لصرح ذلك الثراء والأمل وما فيه من حياة لمحتضر ، ومال لمعوز ، وسعادة لشقى ، وأنس لشجى ؛ هذا الأمل يخول الفقير المعدم أن يترقب ابتسامة الحظ وإن كانت ابتسامة شاحبة حينا وعبوساً وتنكراً من جانب فى معظم الأحيان فيتبرم بحظه ويشكو من قسوة دهره .

ظاهرة الحظ قديمة كالأزل ، فقد ندب آدم — عليه السلام — حظه وشكا من سوء طالعه الذى أوقعه فى الخطيئة بأكله من الثمرة المحرمة وما ترتب على ذلك من عقوبة وحرمان هما فقدانه الفردوس وخروجه منه ، فكانت جناية جناها على نفسه وعلى بنيه من بعده .

والإنسان من أقدم العصور قد شخص بصره إلى السماء يرصد نجومها ويترقب ما يجرى فى عالمها ، يسائلها عما يخبئه له الغيب من حظ سعيد أو نحس يحل به . وقد تمخض عن ذلك علم « التنجيم » ثم تطوره بمرور الزمن إلى علم ثابت الأساس هو علم الفلك الحديث . ولأسباب مشابهة — إن لم تكن مطابقة — بحث عن « حجر الفلاسفة » الذى إذا ما لامس معدنا ما صيره ذهباً فجلب بذلك السعد والغنى ؛ وقد كان ذلك من أكبر العوامل فى وجود علم الكيمياء القديم الذى تطور منه علم الكيمياء الحديث ...

وتلك التمائم والأحجبة التى لجأ إلى استعمالها الإنسان منذ أزمان بعيدة ، وما زالت بعض الشعوب البدائية تستعملها إلى يومنا هذا ، إنما ترمى كلها إلى غاية واحدة هى جلب الحظ السعيد ودرء النحس والأذى .

كذلك العرب ، كانوا فى جاهليتهم يتفاءلون ويتشاءمون ، يؤمنون بحسن الحظ ويتقون شر النحس وسوء الطالع ، يتشاءمون من بعض الحيوانات وخاصة بعض الطيور مثل البوم والغربان . وها هو شاعرهم يقول من قصيدة يعاتب فيها قومه ويفاخر بتسامحه ويكونه يدرأ السيئة بالحسنة :

وإن زجروا طيراً بنحس تمر بى زجرت لهم طيراً تمر بهم سعداً

بيد أن بعض الناس ، برغم فكرة الحظ السائدة — أو ظاهرته كما يحلو لى أن أسميها — لا يؤمنون بالحظ ، ويعتقدون بأن الايمان بالحظ فيه شىء من ضعف الايمان بالقضاء والقدر وإن كنا لا نشاركهم فى هذا الرأى ، إذ أن الاعتقاد فى القضاء والقدر لا ينافى بحال من الأحوال الإيمان بوجود السعد والنحس .

وهناك بعض من الناس ينكرون الحظ ويحسبونه ضرباً من الخيال والخرافة ورأيهم فيه هو رأيهم فى « الغول والعنقاء » وينعتون من يؤمن بالحظ « بالمشعوذين » والمهووسين .

وفئة أخرى تؤمن بالحظ فى قرارة نفسها وتنكر ذلك أمام غيرها لأن فى ذلك خروجاً عن العرف على سبيل « خالف تعرف » كما أن فى ذلك — كما يتوهمون — دليلا على القوة والاعتماد على النفس والاعتداد بها .

بعض ظواهر الحظ ومتناقضاته :

نشاهد فى كثير من الأحيان أن نفراً من الناس قد يلازمهم الحظ السعيد طيلة حياتهم فيفوزون بالجاه والثراء ويصلون إلى القمة من أقصر طريق وبغير عناء شديد ، مع أن مؤهلاتهم

لا تتناسب مع ما حصلوا عليه بل تتنافى معه فى بعض الأحيان ، وقد يختلف الناس فى تعليل ما يشاهدون ولكنهم يتفقون جميعاً بأن ذلك النفر محظوظ سعيد .

وترى أيضاً بعض ذوى الأعمال من الرجال يغامرون فى مشروعات ضخمة ينفقون فيها المبالغ الكبيرة من المال من غير وجل ولا خوف مستبشرين متفائلين ، بكاد الواحد منهم يجزم مقدماً بنجاحه فى شىء من الالهام وقد تسفر النتيجة فى معظم الأوقات عما توقعوه ، مع أن نجاحهم قد لا يكون ناتجاً عن تفكير أو تبصر فى عواقب الأمور ، ومثل هذا النفر يرسم لهم الحظ خطاً يسيرون عليه سيراً « آلياً » بخطوات ثابتة .

كذلك ما نشاهده حول « الموائد المستديرة » للعب الميسر نرى بعض اللاعبين قد تكاثرت أرباحهم وقد يكون ذلك ناتجاً عن كونهم أمهر من خصومهم ، ولاسيما فى بعض الألعاب التى تحتاج إلى مهارة مثل النرد والدومينة و « البردج » ، ولكن هنالك أنواعاً من الميسر لا تحتاج إلى حذق أو دراية فى كثير أو قليل مثل أوراق « اليانصيب » إذ من الناس من يفوز بربحها مرات عديدة مع أن غيره قد يكون أكثر مواظبة على شرائها ، وقد يشترى منها الشىء الكبير ومع ذلك يخسر على الدوام .

ومن الناس من يلازمهم النحس طيلة الحياة ، رغما عما يتصفون به من كفاية ودماثة أخلاق ؛ وإذا حصلوا على شىء من الجاه ، فهو أقل بكثير مما يستحقون . والكاتب البلجيكى « ماترلنك » وهو كاتب دراى مشهور نال جائزة نوبل سنة ١٩١٣ يضرب لنا مثالا ناطقاً لبعض منكوبى الحظ فى وصف جاء منه : « أتيح لى أن أتتبع عن كثب حياة صديق بائس خانه الحظ ولازمه النحس فى كل خطوة خطاها . كان مثالا لدماثة الخلق ورجاحة العقل ، ورغما عن ذلك فقد أخفق فى معظم ما تصدى له من عمل ، كما كان يجيد ألعاب الفروسية ، ويحسن استعمال الهند القرضاب ومع ذلك فقد هزمه خصم هزيل ثلاث مرات متوالية وجرح فى كل مرة ، وكان ذلك على أثر خصومة سياسية أفضت بهما إلى المبارزة والجأتهما إلى تحكيم السيف ، كما تخلى عنه معظم أصدقائه رغما عن وفائه لهم إذ الناس ينفرون ممن ينفر منهم الحظ ، ويقبلون على من يقبل عليهم . ولم تكن حياته الغرامية بأسعد حظا من حياته الاجتماعية ، فقد أحب وأخلص فى الحب ولكنه لم يجن من حبه إلا الخيانة ولم يحصد غير الغدر » .

ظاهرة قانون التسلسل والتتابع :

يقول المثل « إن المصائب لا تأتى فرادى » ، وهو يطابق تماما المثل الفرنسى « un malheur ne vieut jamais seul » نشاهد فى كثير من الأحيان بأن المصائب تتلاحق ويسبب بعضها بعضا ، كما أن النجاح والسعادة يفضيان إلى غيرهما فى شبه سلسلة ذات حلقات سعيدة .

ويمكن أن نطبق هذا القانون على سيرة بعض عظماء الرجال مثل هتلر ونابليون وغيرهما من كبار الناس . ولنأخذ مثلا لذلك نابليون بونابرت .

لما كان نابليون طالباً فى المدرسة الحربية بباريس قال عنه يوماً بعض أساتذته : « إن هذا الطالب القرصق جنسية وأخلاقاً سوف يتبوأ مكانا عاليا إذا واتاه الحظ » . وقد صدقت نبوءة ذلك الأستاذ وسطع نجم نابليون وتألق .

امتاز نابليون فى حصار ميناء طولون سنة ١٧٩٣ ، وهزم الانجليز وأنصارهم من الفرنسيين الملكيين ، ورقى إلى وظيفة جنرال على أثر ذلك ، كما انتصر انتصاراً باهراً فى حملته على الايطاليين سنة ١٧٩٦ ثم فوزه على النمساويين سنة ١٨٠٠ ، ثم هزيمته للروس سنة ١٨٠٥ ، وبروسيا الشرقية سنة ١٨٠٦ ، ثم هزيمته لأسبانيا والبرتغال بعد ذلك ، وهكذا أضحى نابليون سيد أوربا وأعظم رجل بها .

ثم بدأ يخونه الحظ ويأفل نجمه رويداً رويداً وكان بدء ذلك بعد حملته الغير موفقة ضد الروس سنة ١٨١٢ ، إذ حلت بجيوشه هزيمة منكرة فى سهول روسيا الترامية الأطراف المكسوة بالجليد ففتك البرد بجيوشه التى لم تجد مأوى ولا قوتاً ؛ وبعد ذلك هزيمته فى « ليبزج » سنة ١٨١٣ واحتلال فرنسا سنة ١٨١٤ ونفى نابليون فى جزيرة « ألبا » ، ثم فراره منها وجمعه لفلول جيوشه التى هزمت هزيمة نكراء فى واقعة « واترلو » سنة ١٨١٥ ونفيه فى جزيرة « سنتهيلانة » ، حيث ظل بها يعانى من قسوة الطقس آلاماً جسمية ، ومن قسوة الهزيمة والاخفاق آلاماً نفسية ، حتى قضى نحبه سنة ١٨٢١

إن سيرة هذا البطل تخضع لقانون التتابع فى صورة واضحة . نجاح متلاحق متواصل يجذب بعضه بعضا حتى إذا ما وصل إلى القمة أعقبه هبوط متواصل أيضاً كما لو كانت الجاذبية تعمل عملها بجذبها إلى مركزها كل جسم من الأجسام ، وكما تفعل مع جسم قذفته إلى أعلى طبقات الجو فهو يصل إلى غايته القصوى ، ثم بفعل الجاذبية يهبط فى خط أقرب إلى الشكل البيضاوى على حد قول الشاعر :

إذا تم أمر بدا نقصه ... توقع زوالا إذا قيل تم

أو قول الآخر :

ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

تبدو هذه الظاهرة أى ظاهرة قانون التتابع غريبة حقاً ، وأكبر عامل يمكننا أن نعلل به هذه الظاهرة هو الثقة بالنفس والايمان بمقدرتها . إن الثقة بالنفس أساس كل نجاح ، والنجاح بدوره يزيد من تلك الثقة ويقوى الايمان ، فيتضاعف المجهود ويصدق العزم ، وهكذا يجذب النجاح بعضه بعضاً فى معظم الأحيان كما يحدث عكس هذا عندما تضعف الثقة بالنفس ؛ يحدث الإخفاق وتتوالى المصائب والإخفاق بدوره يزيد من إضعاف الثقة بالنفس والروح المعنوية ، وهكذا فى شبه دائرة خبيثة حتى تنعدم نهائياً الثقة بالنفس حيث لا يكون غير الهبوط والإخفاق .

الوساوس التى تبشر بالسعد أو تنذر بالنحس :

هذه ظواهر مشاهدة لدى الكثير من الناس وقد قصت علينا سيدة تشتغل بالتجارة أنها تشعر مقدما بما إذا كان التوفيق سيحالفها فى عملها أم سوف يخونها الحظ ، فزعمت أنها فى الحالة الأولى تشعر بنشاط يغمرها وبشر يشع من محياها كما تجد فى نفسها مقدرة على التعبير والاقناع وقلما يفلت الزبون — فى مثل هذه الأحوال — من قبضتها كما أن توفيقها فى إبرام صفقة رابحة يرفع من روحها المعنوية ويكثر من تفاؤلها .

كذلك تروى لنا السيدة المذكورة أنها تشعر فى أحيان أخرى بانقباض فى النفس وقلق — علمتها التجارب بأنهما مقدمة لعدم التوفيق والنحس فيما تقوم به من أعمال ، وأنها لتجزم مقدماً — فى مثل هذه الأحوال بالخسارة ، أو على الأقل بقلة الربح .

ومثل هذه الأحاسيس يشعر بها لاعبو الميسر ، بل هم أعرف بها من غيرهم .

وهنالك ظاهرة « التخاطر » التى أثبت علم النفس وجودها كما اعترف وأقر بها « بيرجسن » ، وهى أن ترى رأى العين صديقاً أو قريباً بمناسبة حادث خطير وقع لها أو تسمع صوتهما وأنت فى كلتا الحالتين متمتع بجميع قواك العقلية ، وفى حالة سحو تام .

كذلك قد يكون هذا التخاطر فى صورة أحلام ، وقد تنبىء هذه الظاهرة — سواء كانت فى حالة يقظة أو فى نوع من الأحلام — بما سوف يحدث من خير أو شر .

بعض الطرق المؤدية للنجاح :

١ — الاعتماد على النفس : هو أساس كل نجاح فى الحياة وهو ناتج عن القوة والثقة بالنفس ، كما أن عدم الثقة بالنفس هو علامة الضعف ومدعاة للتردد ؛ والتردد لا شك فاشل على حد المثل الانجليزى القائل « He who hesitates is lost » .

٢ — تجنب سوابق الإخفاق : إن الإخفاق سابقة تجر إلى غيرها لأن فى ذلك إضعافا للثقة بالنفس ، وإذا تكررت فقد تخلق عقدة نفسية عصية الحل ومركباً للنقص يصعب الخلاص منه كما يحدث فى « فسيولوجية » الهضم مثلا إذا أصيب إنسان مرتين أو ثلاث مرات متوالية بسوء الهضم فقد يخلق فى نفسه نوعاً من الخوف « Phobie » كفيلا باحداث اضطراب قد تطول مدته .

لهذا كان على الطالب الذى يريد أن يدخل فى امتحان هام — كالمسابقات — ألا يقدم على ذلك إلا بعد تحضير كاف يكفل له النجاح وألا يقول — كما يقول الكثيرون — : دعنى أجرب حظى .

دكتور
فضل أبو بكر
عضو بعثة فاروق الأول السودانية بفرنسا

العدد القادم
هو
العدد الهجرى الممتاز